قسم اللغة والأدب العربي/ السنة الثانية ليسانس: أدب – لغة – نقد. 2023/22

المحاضرة الثانية عشرة: الـرسـائـل الأدبـيـــة

تعتبر الرسائل الأدبيّة فنّا قديما، شأنها شأن فن الترسل، ولكن رغم تنوّع أصنافها وتعدد مواضيعها فإنّنا نجدها في عصرنا الراهن تظهر في شكل جديد لصيق بإفرازات العصر الحديث عقب الحرب العالمية الأولى، وقبل التطرّق للحديث عن بعض هذه الرسائل عند الأدباء المعاصرين سنستحضر نُتفاً من رسائل الماضي الجميل، رسائل يمكن أن نرجع أجودها إلى العلّامة ابن حزم الظاهري في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألّاف) وهو كتاب صغير حجما ثري معنى ومغزى، وما تفرّدت به هذه الرسائل أنّ صاحبها (ابن حزم) قد حصرها بين المحبين فقط، وليس بين قطبين أو أكثر من أقطاب الأدب والشعر لذلك لن نقف عنده مطولاً لننتقي من العصر الأندلسي أجمل الرسائل التي طرزها الحب، وغمرها الشوق، وملأتها الدهشة، لعل من أهمها رسائل الشاعر ابن زيدون القرشي التي أرسلها إلى ولّادة بنت المستكفي، بغض النظر عما بدر منها حيث كان الأدباء يجتمعون لديها في صالون أدبي، ربما كان الأول من نوعه آنذاك على شاكلة القصور الملكية الفرنسية والبريطانية في العصور اللاحقة.

التعريف بالرسالة:

فن كتابة الرسائل هو أحد الفنون النثرية التقليدية في تراثنا الأدبي إلى جانب الفنون النثريّة الأخرى، كالخطابة والمقامات المناظرات، والرسالة نص مكتوب نثراً، يبعث به صاحبه إلى شخص ما، يُسمّى المرسل إليه، كما تعتبر الرسالة الأدبيّة من أهم فنون السرديات؛ أي الإنشاء، والمحادثة، حيث تخاطب الغائب وتستدرجه عبر فنايتها ببلاغة الكلمة وقوتها.

وتُعرّف الرسالة على أنَّها نص نثري سهل، يوجّه إلى إنسان مخصوص، ويمكن أن يكون الخطاب فيها عاماً، فهي صياغة وجدانيّة حانية مؤنسة وفي عتاب رقيق يُظهر النجوى أو الشكوى، كما يبوح بما في وجدانه من أحاسيس وأشجان، تتوارد الخواطر فيه بلا ترتيب ولا انتظام؛ لتغدو الرسالة إن قصُرت أو طالت قطعة فنية مؤثرة دافعة إلى استجابة المشاعر لها وقبولها ما باحت به.

فن الرسائل عند العرب:

يعتبر فن الرسائل عند العرب من الفنون الأدبية القديمة ازدهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وفيهما انتشر صيته، وهو فن نثري جميل يظهر مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية القوية، ولما كانت الكتابة والقراءة أقل شيوعا عند العرب في الجاهلية لم يكن لفن الرسائل دور في حياتهم الأدبية والاجتماعية في ذلك العصر، وهذا خلافا للفنون الأخرى كالشعر والخطابة والأمثال التي كانت منتشرة عندهم، ومزدهرة لكن مع مجيء الإسلام تغيرت الحال، فالرسول صلى الله عليه وسلم وهو النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب كان يشجع المسلمين على تعلم القراءة والكتابة وقد اتخذ كتّابا يكتبون له القرآن الكريم، كما يكتبون له الرسائل التي كان يبعث بها إلى زعماء المناطق، ورؤساء القبائل، وملوك الدول كما فعل مع كسرى عظيم الفرس، وقيصر عظيم الروم، ولما كانت الخطابة والشعر قادرين على أداء الدور العلمي الذي تؤديه الرسالة حين تنقل ما يتصل بسياسة الدولة من مراسيم سياسية حول تنظيم الحكم أو توجيهات أو تعليمات إدارية حول الحروب والغزوات، ومن هذا المنطلق التاريخي نافس الكاتب المترسل الشاعر والخطيب، كما شجع الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي ـ رضي الله عنهم ـ على تعلم القراءة والكتابة، واتخذوا لهم كتّابا فدونوا القرآن الكريم على مرحلتين، الأولى في عهد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، والثانية في عهد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فكان القرآن الكريم أول نص عربي اتخذ شكل كتاب، كما دون الحديث النبوي فيما بعد مع بداية العصر العباسي.

ومن فوائدها أنها ترجمان الوجدان ونائب في قضاء الحاجات، ورباط الوداد بين البشر مع تباعد البلاد، وطريقة أسولب الرسالة هي المخاطبة البليغة مع مراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه مع مراعاة النسبة بينهما، وفي ذلك يقول إبراهيم بن محمد الشيباني: ((إذا احتجت إلى مخاطبة أعيان الناس أو أوساطهم أو سوقتهم فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته وعلو مكانته وانتباهه وفطنته، ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك فلا يكتب لمن أُصيب في ماله أو عياله كما يكتب لمن فرغ باله ووفر

ماله))[1]، وأهم ما يدعو إليه الشيباني في هذه الضوابط مراعاة مقتضى الحال العام أو الخاص من قبل كاتب الرسالة نحو المرسل إليه، وحاله العام من حيث المكانة والحرفة والمحيط، والخاص من حيث عواطف الفرح والحزن...

خصائصها:

(1) أن تجعل الكلام فطريا سليما من شوائب التكلف.

(2) العدول عن الكلام المغلق والتشابيه المُستبعدة والتراكيب الملتبسة إلى الكلام المهذب الصريح.

(3) تنقيح الرسالة من حشو الكلام وتطويل الجمل فيظهرها وافية الدلالة على المقصود مباشرة، ولا يعد هذا مناقضًا لما يستدعيه المقام من البسط في الموضوع إما تعزيزا للمعنى وإما حذرا من الإبهام، أو دلالة على عواطف القلب، أو رغبة في توضيح الخواطر.

(4) تنزيل الألفاظ والمعاني على قدر الكاتب والمكتوب إليه فلا يُعطى الخسيس رفيع الكلام، ولا الرفيع خسيس الكلام وأن تكون الرسالة وتعابيرها مستعذبة حسنة الارتباط.

(5) إلباس الكلام وكسوته رونقاً وإشراقاً بجودة العبارة وسلامة المعاني وسهولة الألفاظ، وبهذا تكون الرسالة أقرب إلى قلب المتلقي.

(6) أن تحتوي على الاقتباس المأخوذ من المنثور والمنظوم.

وللرسالة الأدبية الجيدة مجموعة من المقومات منها الوفاء بالغرض الذي كتبت لأجله الرسالة والبعد عن الغموض، والتزام الوضوح في المعاني وأن تعبّر عما يريده كاتب الرسالة، والتعبير بأسلوب سلس، وعدم التكلّف.

أنواع الرسائل:

1 – الوصايا: وهي تلك الرسائل التي أرسلها الخلفاء الراشدون إلى من ولّوهم على الأمصار، ويطلبون منهم السير في الحكم والحرب والقضاء على طرق معينة، مثلها ما يكتبه الآن حاكم الدول إلى سفرائهم أو من يقومون بمهام معينة لهم.

2 - الرسائل الشخصيّة: هي التي يكتبها الشخص إلى صديقه أو قريبه، وتُسمَّى بالرسائل الأهلية ويعبّر فيها الكاتب عن نفسه تعبيراً حراً بلا قيود.

[1] أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ص: 29.

3 – الرسائل الأدبية: وهي تلك الرسائل التي يرسلها أديب إلى أديب آخر مناقشاً إياه، أو متحدثاً معه في قضية أدبية أو عن خبرته في عصر من العصور، وهذه الرسالة يجب نشرها بعد وفاة صاحبها خدمة للأدب بعد استبعاد ما يسوء منها، ومن أشهر رسائل هذا النوع ما كتبته الأديبة **مَيْ زيادة** لكل من **جبران خليل جبران** و**مصطفى صادق الرافعي**.

4 - الرسائل الرسميّة الإداريّة: وهي التي ترسلها إدارة من الإدارات، أو هيئة من الهيئات إلى فرد من الأفراد أو العكس.

انتهى